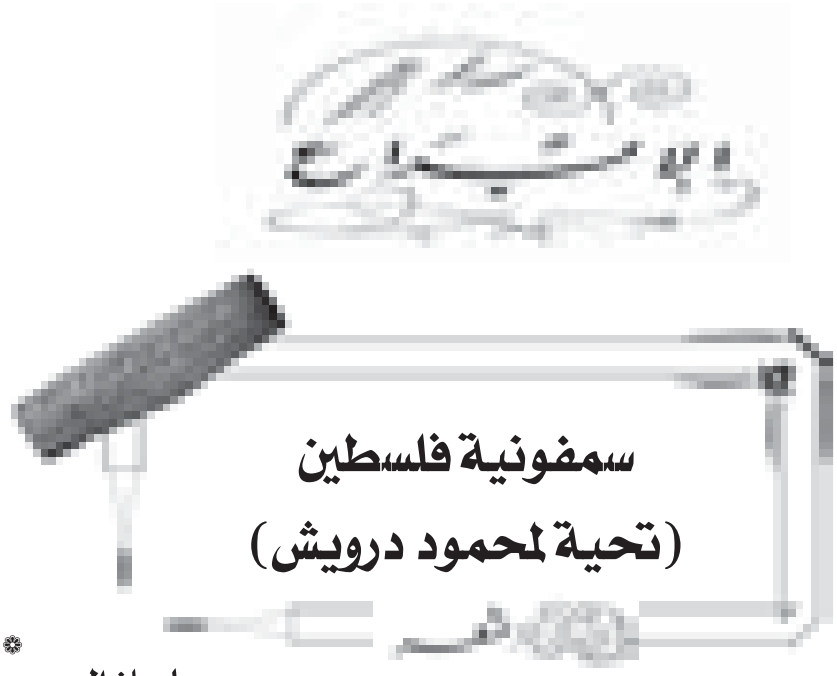

سمفونية فلسطين
(تحية لمحمود درويش)

سليمان العيسى

ذاتَ يومٍ.. سقَطَ الخَنْجَرُ في قلب الجَسَدْ

كانتِ الأرضُ الجَسَدْ..

أرضُنا المذبوحةُ الثَّكلى التي

تمتدُّ من حزنِ الزَّبَدْ

في أغاديرَ.. إلى حزنِ الزَّبَدْ

شاعر العروبة الكبير.

في خليج التبْرِ والدُرِّ، وغَصَّاتِ الشَّجَنْ

كلُّه، في شهقةِ الجرحِ، وَطَنْ

الريــحُ الغريبــةُ العاتية ترافــقُ سقوطَ الخَنْجَــر في قلب الجَسَــد.. الغَزو الشرس يجتــاح.. و«سمفونيــةُ فلسطــين».. تجمع أولى ضَرَباتهــا، وتبدأ المقاومة، بنَبرتها التي ســوف تستعصي على الموت.. نبرةٌ تجسدت في عبارة شعرية واحدة، أطلقتها «سمفونيةُ فلسطــين». قالت العبــارة للخنجر وهو في قلب الجسد، قالت له: «سَجِّلْ أنا عربي».

ومنذ ذلــك اليوم.. تتــوالى الطعنات.. وتحاول الريح الغريبةُ العاتية أن تسحق كل شيء في طريقها.. تزمجــر تقصف، وتقتلع كل شيء. والعبارةُ الشعرية صامدة: «سَجِّلْ.. أنا عربي».

❀ ❀ ❀

وتحل النكبة..

«سمفونية فلسطين».. تواصل رحلتها في دنيا الغربة والتشــرد، بعد أن فقدت بيتها، وقريتها، وصدر أمها، وقهوةَ أمها، ولكنها لم تفقد نبرتها الخالدة التي ظلَّت تجلجل:

«وطني، يعلِّمني حديدُ سلاسلي

عنفَ النسور، ورقةَ المتفائِلِ

ما كنتُ أعرِفُ أن تحتَ جلودِنا

ميلادَ عاصفةٍ، وعرسَ جداولِ»

وألتقي «سمفونية فلسطين».. التي «خَلَعت معاطِفَها الجبالُ ودَثَّرتْها..»

ألتقيتها.. في كل مكان من أرض العرب..

يتلاقى المُشــرَّدان.. في دمشق، وبيروت، وبغــداد، والقاهــرة، وصنعــاءَ، وتونــس، والجزائــر، نعم.. يتلاقى المشــرَّدان في كل مكان، ويــذوب الجرحُ الصغــير في الجرح الكبــير، ويُسعدني، ويملؤني ثقــةً بالغد، أن استمع إلى «السمفونية» المشردة، التي تحمل قريتهــا المدمّــرة، وقهوةَ أمهــا، وهي تطير في الآفاق، حتى تصبــح خفقةً في كل قلب، وصرخةَ تمردٍ شاعرة في أرجاء الدنيا، وتُقرأ في أكثر من أربعين لغة من لغات هذا العالم.

وذات يوم.. يفاجئنــي النبأ.. كما فاجأ الجميــع.. أن السمفونية قــد توقفت، وأن محمود درويش قــد رَحَل.. وأُطرِق.. وغيمةُ الحزن تلُفُّني.. لأقول:

صوت فلسطين الشاعر.. المدوّي..

محمـود درويش لم يرحـل.. وإنما بـدأ الحياةَ الآن..

وأتمتم بيني وبين نفسي هذا المقطع من قصيدة قلتها ذات يوم:

أرأيتَ مِقْصَلَتي التي ماتت على عُنُقي..
وما ماتَ القتيلُ..
إني أُحاصِرُها..
وتعرفُ، وهي تَذْبَحني،
مَنِ الباقي؟
ومَنْ منا يزولُ؟

❁ ❁ ❁

إلى صديقي.. شاعـر فلسطين الأول.. أهدي هذه المقاطع مـن قصيدة لي بعنوان الفلسطيني الطائر.. ألم يكن هو الفلسطيني الطائـر، الذي شاء له البغـي والعدوان ألاَّ يستقر في مكان؟

تقول القصيدة:

في الغَرْبِ.. يزرعونَكْ
في الشرق.. يزرعونَكْ
في العَتَماتِ السود، في الضَّبابْ
في رَجْفة الحِرَابْ
تَودُّ لو تمحوكَ من ذاكرةِ الترابْ
ومن رُؤاهم..
حينما تنطبقُ الأهدابْ
عليكَ كابوساً، وحُلْماً أدمنَ العذابْ
لكنكَ.. الباقي على الزمنِ
حكايةَ الوطنْ..
يا رائعَ الشقاءِ والمِحَنْ!
يا سيدَ الشقاءِ والمِحَنْ!

حكاية الشعب الذي يقاسم السماءْ
بقاءَهَا.. ويُبدع الحياة
من دمهِ المُجَفَّفِ..
المذرورِ في ضميرِنا..
وفي ضميرِ قاتليهِ..
يُبدع الحياةْ..

❁ ❁ ❁

يا أيها المذرورُ في ضميرنا
وفي ضميرِ الأرضِ..
يا لَهَبْ..
يطهِّرُ العَرَبْ
يوْرَق العَرَبْ

يا سُورةَ الزلزالِ في جَنَازةِ العَرَبْ
في الشرقِ يزرعونَكْ
في الغربِ يزرعونَكْ
وراءَ صمتِ الصمتِ، والنسيانِ، يزرعونَكْ
يا هجرةَ الجذورِ في الترابْ
يا قصة العذابْ!
تَنَاثري في لحمنا، في دمنا الفسيحْ
في عَتماتِ الوطن «الزنزانةِ» الجريحْ
عساهُمُ إن أطبقوا الأجفانْ
في مَصْنعِ القتلِ..
الذي يدعونه الزمانْ
يستشعروا الأمانْ
عسى يَدُ القاتل تستريحْ
من قصة المَيْتِ الذي يقاسمُ الإلهْ
بقاءَه.. ويُبدع الحياة
من دمه المذرورِ في كل الجهاتِ يُبدع الحياةْ

❁ ❁ ❁

يا أيُّها الطائرُ من دَمٍ إلى دَمِ
خميرةً في رَحِم الترابْ
خميرةً.. يصنعها العذابْ
حتى إذا تشقَقَ الضبابْ
وانحسرت مواطئُ النعل عن الرقابْ
وجاء جيلٌ يمضَغُ السمَّ، ونابَ «الأرقم»
ويرفع الحرابْ..
من دون أن يسألَ ماذا كانْ؟
وما الذي يكونُ؟ إنَّ الموتَ والحياةَ توأمانْ

حينئذٍ.. تكونُ أنتَ الرعدَ والمَطَرْ
والخِصْبِ.. والثمرْ

حينَئذٍ.. تُفَجِّرُ الربيعْ
تعودُ بالجميعْ..
في قبضةٍ من ألَقٍ، ومن دَمٍ، تعودُ بالجميعْ

فَلْينثروكَ الآنَ.. كي تضيعْ
في وَهْمهم.. في عُقْمِهم.. تضيعْ

يا أيها الطائرُ من دَمٍ إلى دَمِ
يا أيُّها الشعبُ الذي
يُشاطر السماءْ
عِنادَها.. ويُبدع الغِنَاءْ